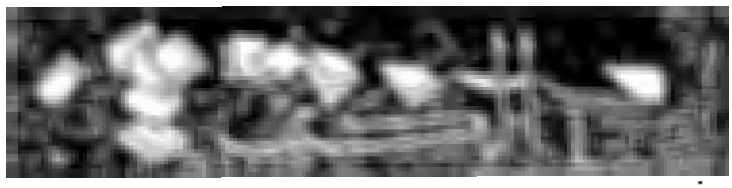

# كتاب التصوير الفني في القرآن

## تأليف الأستاذ سيد قطب

## للأستاذ نجيب محفوظ

قرأت كتابك « التصوير الفني في القرآن » بعناية وشغف ، فوجدت فيه فائدتين كبيرتين :

أولاهما للقارىء : خصوصاً القارئ الذي لم يسعده الحظ بالتفقه في علوم القرآن ، والغوص إلى أسرار بلاغته . بل حتى هذا القارئ الممتاز لاشك واجد في كتابك نوراً جديداً ولذة طريفة ، ذلك أن كتاباً خالداً كالقرآن لا يعطي كل أسراره الجمالية لجيل من الأجيال مهما كان حظه من الذوق وقدره في البيان ، فللجيل الحاضر عمله في هذا الشأن ، كما سيكون للاجيال القادمة عملها . والمهم أنك وفقت لأن تكون لسان جيلنا الحاضر في أداء هذا الواجب الجليل الجميل معاً ، مستعيناً بهذه المقاييس الفنية التي يألفها المعاصرون ويحبونها ويستمرون في وادي الفن على هداها ونورها . إن عصرنا — من الناحية الجمالية — عصر الموسيقى والتصوير والقصة ، وهأنت ذا تبين لنا بقوة وإلهام أن كتابنا المحبوب هو الموسيقى والتصوير والقصة في أسمى ما ترقى إليه من الوحي والإبداع . ألم نقرأ القرآن؟ بلى . وحفظنا — في زمن سعيد مضى — ما تيسر من سوره وآياته ، وكان — ومازال — له في قلوبنا عقيدة وفي وجداننا سحر ، بيد أنه كان ذاك السحر الغامض المغلق ، تحسه الحواس ، ويهتز له الضمير ، دون أن يدركه العقل أو يبلغه التذوق ، كان كالنغمة المطربة التي لا يدري السامع لماذا ولا كيف أطربته ، فجاء كتابك كالمرشد للقارىء والمستمع العربي من أبناء جيلنا ، يدله على مواطن الحسن ومطاوي الجمال ، ويجلي له أسرار السحر ومفاتن الإبداع . كان القرآن في القلب فصار ملء القلب والعين والأذن والعقل جميعاً .

ولقد قلتَ بعد نظر طويل وتدبر « التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن . فهو يعبر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهني ، والحالة النفسية ، وعن الحادث المحسوس ، والمشهد المنظور . وعن النموذج الانساني والطبيعة البشرية . ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة أو الحركة المتجددة ، فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة ؛ وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد ، وإذا النموذج الإنساني شاخص حي ، وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية ... » ومضيت تستشهد لكل حالة بالأمثال مفسراً أشارحا موضحا ، ولم تقتنع بذلك فتوثبت للبحث عن القواعد التي يقوم عليها هذا التصوير المعجز من التخييل الحسي والتجسيم في فيض المصرية وروحها ، فصورة « الأمومة » تمثل المرأة المصرية الوادعة المستسلمة المستغرقة في شؤون العيش ، يفعم قلبها السلام والإيمان ما دامت تجد الكفاف ، وتمثل صورة « عزبة في إمبابة » منزلا يكاد يحدثك عن الحياة التي تنطوي عليها جدرانه . وفي صورة « أرض النيل : الفلاح » تخفق روح القرية ، بل تكاد وأنت واقف تتأملها تشم رائحة التربة المصرية وتشعر بقلبها النابض ، والنسيم المتجاوب في أنحائها ، وتلمس شقاء الفلاح وبؤسه وصبره وأمله وإيمانه وتعاونه مع زوجه .

ومن مزاياه — الفنانة شدة الإحساس بالضوء المصري الصافي وما يضفيه على الألوان من حيوية وقوة ، ويتجلى هذا جيداً في المناظر الطبيعية التي رسمتها ، وهي نماذج صادقة من الجمال العبقري وأناقة الطبيعة المصرية ، كما أنها مفعمة بالإحساس الشاعري الرقيق — وبينما تطالعك لوحة الفلاحين مثلا بغلظة الحياة الواقعية وقسوتها ، كأنها جلاد لا يرحم ، تطالعك صورة « المحمودية » بجمال الطبيعة ورقتها وحدبها علينا ، كأنها أم رؤوم .

ولا شك أن الفنانة التي تستطيع أن تستوعب كل هذه الاحساسات وتعبر عنها تعبيرا موفقا فنانة كبيرة — ولا شك أن الفن الذي يجمع بين : (١) الشيء في حد ذاته ، أي الشكل ذو الدلالة المعنوية و (٢) التعبير عن رؤيا فنية شخصية و (٣) الاحساس البيئي الاجتماعي الذي يصور الآلام والآمال المشتركة ، فن جدير بالذكر والتنويه والدرس والاعتبار . وإني لأزف إلى صديقتي جان أخلص تهنئة على توفيقها التام في رسومها التي تفتح أعيننا على سور الجمال التي تفيض بها « أرض مصر » .

**نصري عطا الله سوس**

من الأمثال والشواهد . ثم لم تقنع بما فتح الله عليك من سحر هذا الفيض الإلهي فقلت « حينما نقول إن التصوير هو القاعدة الأساسية في تعبير القرآن وإن التخييل والتجسيم هما الظاهرتان البارزتان في هذا التصوير لا نكون قد بلغنا المدى في بيان الخصائص القرآنية عامة ولا خصائص التصوير القرآني خاصة ... هنالك التناسق الذي يبلغ الذروة في تصوير القرآن . » فكان هذا الفصل الذي بلغت به أنت أيضا الذروة في النقد والذوق والفهم . كنت أود لو أستشهد ببعض ما جاء في كتابك من النقد التطبيقي للآيات الكريمة ، ولكن تضيق عن ذلك كلمتي الموجزة ويأباه ذوق الذي يأبى المفاضلة بين آي الذكر على أي وجه من الوجوه . ومهما يكن من أمر فينبغي أن أقرر هنا أنه في فصلي « التناسق الفني » و« القصة في القرآن » قد بارك القرآن مجهودك فرفعك إلى مرتق يتعذر أن يبلغه ناقد بغير بركة القرآن..!

أما أخرى الفائدتين : فهي لك أنت ! لأن الكتاب في جملته إعلان عن مواهبك كناقد . إنك تستطيع أن تعبر أجمل التعبير عن أثر النص في نفسك ، ولا تقف عند هذا فتجاوزه إلى بيان مواضع الجمال في النص نفسه وما يحفل به من موسيقى وتصوير وحياة ، ثم تستنطق الموسيقى أنغامها وضروبها ، وتستخبر الصورة عن ألوانها وظلالها ، وتستأدي الحياة حرارتها وحركتها . ولا تقنع بهذا كله ! فيقرن ذهنك بين النص والنص ، حتى تظفر وراء الظواهر بوحدة ، وخلف الآيات بطريقة عامة ، تجعل من الكتاب شخصاً حيا ذا غاية واضحة ، وسياسة بارعة ، وخطة موضوعة ، تهدف جميعاً إلى الإعجاز الفني فتناله عن جدارة . فهذا ذوق جميل ، وتذوق عسير وفكر ذو نفحة فلسفية ...

والآن اسمح لي أن أوجه إليك سؤالا ، وأن أسوق ملاحظة:

أما السؤال : فإنك تحدثت عن التصوير والتخييل والتجسيم والتنسيق الفني ، وكل أولئك روح الشعر ولبابه قبل أي شيء آخر ، أفلم يخطر لك أن تحدد نوع كلام القرآن على ضوء بحثك هذا ؟

وأما الملاحظة فمن الفصل الذي خصصته للنماذج الإنسانية ، فقد وجدت فيما استشهدت به من آيات ما يعبر عن طبائع بشرية وسجايا نفسية لا نماذج إنسانية ، فالنموذج الإنساني بمعناه العلمي شيء أشمل من هذا ، وهو قد يحوي الكثير من هذه الطبائع كما قد يحوي غيرها ، والمهم أنه يعرضها على نحو خاص يتفق ومزاجه الأساسي . والنماذج الإنسانية محدودة معروفة — على اختلاف تقسيم علماء النفس لها — أما الطبائع فلا حصر لها ، فلعلك قصدت الطبائع لا النماذج .

# حماري قال لي . . .

توفيق الحكيم ... مطبعة المعارف ١٤٧ ص

## للأستاذ كامل عجلان

حمار الحكيم، لين الطبع هادئ التأمل ، يمر خفيفاً على هامات التاريخ ، يقتطف شيئاً من الدقائق القصصية مثل مشاهده في حادثة الطوفان ... ويأبى الحكيم إلا أن يكون صادقاً في تأملاته .

فإذا نشط الحمار وتطاول إلى الاشتراك في « الدعاية » وتعرض ( لهتلر ثم موسيليني ) وانغمس في جحيم الحرب ، والخواطر التي تدور مع رحاها الطحون ، انفلت الحمار وصاحبه إلى الأساطير الشرقية ، فأرسل بشهر زاد إلى الغرب تتهادى هنالك . ولا لوم على الحكيم الذي أبى إلا أن يحلم عن الحرب ، وإلا أن يعيش في أحلامه الفتانة وآرائه عن المرأة وأفكاره في السياسة التي تجد وتجمل في عين السياسي ورجل الاجتماع مثل (حماري ومؤتمر الصلح ) .

ومع خفة الآراء وطرافة موضوعها تطالعك شخصية الحكيم ص ٤٨ في حزب الحمار ...

« الحمار : ألست معي ؟

الحكيم : أبداً أبداً ... ما الذي صنعناه إذن ؟

الحمار : ماذا كنت تريد أن تصنع أكثر من ذلك ؟

الحكيم : أشخاص ومكان وناد ، إني ياسيدي — كما تعلم — لا أعرف لعب الطاولة ولا الشطرنج . ولست ساحر الحديث ، ولا ظريف المجلس ، ولا أحب أن أكون من ذوي الجاه ، كل ما عندي قلم لا أرضى أن أسخره في هدم الأشخاص لمجرد الهدم ولا أن أستخدمه في بناء أشخاص طمعاً في الغنم ... الخ )

هذه هي أنفاس الحكيم ، وتلك آراؤه الهادئة العابرة ، التي لا يريد صاحبها أن يأخذ فيها بخناق أحد ، ولا يرقب شيئاً إلا الإخلاص لفنه والصداقة لحماره الذي غلب كما غلب هو على أمره أيضاً .

وقد أرانا توفيق صوراً من ظلال العاطفة المحرومة الخائفة من المرأة في أحلامه وآرائه ( حماري والطالبة ) وأبدع وتخابث وأسرف في الصدق حين صور ( العقاد ) في خوف وحذر من براثنه العملاقة ، ومن فرط حذر الحكيم كان في فصل ( حماري